﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين بيان قيوميّة الله، وإقامة الدّليل عليها بتنزّل القرآن والكتب السّماويّة قبله

لَمَّا تحدَّث فيما سبق عن القَيُّوميَّة، وهي القيام بذاته، والقيام بأمر خلقه، وهذا يقتضي القيام بما يحتاجون إليه من قيم روحيَّة، وقيم ماديَّة؛ فكانت هذه الآية محقّقة ذلك، بتنزيل الكتاب على النَّبيِّ ﷺ بما يحمله من قيمٍ روحيَّة، إضافة إلى أنّ الآية السَّابقة لَمَّا أشارت إلى الذَّات الإلهيَّة، وتفرُّدها بالوحدانيَّة والقيُّوميَّةِ؛ جاءت هذه الآية؛ لتُقيم الدَّليل على هذه القيُّوميَّة، فمن هذا المقام الكريم الّذي لا يُطاول، ولا يُسامى، كان مُتَنَزَّل القرآن الّذي أُنزل على النَّبيِّ ﷺ، وهو الحقُّ الّذي لا مرية فيه؛ لأنَّه من ربِّ العالمين؛ ولأنَّه جاء مُصدِّقًا للكتب السَّماويَّة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: في الأصل مصدر، ثمّ سمِّي المكتوب فيه: كتابًا، وهو اسم للصّحيفة مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: 153] يعني: صحيفة فيها كتابة[1]، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في هذا الموضع القرآن باتِّفاق من المفسِّرين"[2]، "وَتَكَرَّرَ كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ الْقُرْآنُ، فَصَارَ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ"[3]، "فالأصل في الكتابة النّظم بالخطّ، لكن يستعار كلّ واحد للآخر، لذلك سمّي كلام الله وإن لم يكتب كتابًا"[4].

(1) الراغب، المفردات: (كتب).
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/397.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.
(4) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (كتب).

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: أصل الحقِّ: المطابقة والموافقة، ويقول الجرجانيُّ عن الحقِّ: "الثَّابت الَّذي لا يجوز إنكاره، وفي اصطلاح أهل المعاني: الحكم المطابق للواقع في الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك[1]، ويقول الرَّاغب: " ويُطلق الحقُّ على أوجه: الأوَّل: لِمُوجِد الشّيء بحسب ما تقتضيه الحكمة؛ ولهذا قيل عن الله تعالى: أنّه الحقّ، والثَّاني: يقال للمُوجَد بحسب مقتضى الحكمة؛ ولهذا يقال: فعل الله تعالى كلُّه حقٌّ.

والثَّالث: في الاعتقاد للشِّيء المطابق لما عليه ذلك الشّيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثّواب والعقاب، والجنَّة والنَّار حقٌّ، قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: 213]، والرَّابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الَّذي يجب كقولنا: فعلك حقٌّ، وقولك حقٌّ[2].

3) ﴿مُصَدِّقًا﴾: يُقال: صدقت فلانًا، نسبته إلى الصِّدق، وأَصدَقتُه: وجدته صادقًا، ويستعمل التّصديق في كلِّ ما فيه تحقيق، يقال: صَدَقَني فعله وكتابه، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: مُصَدِّقٌ ما تقدَّم، فهو يخبر عمَّا قبله خبر صدقٍ دالٍّ على إعجازه، أو يخبر بصدق الأنبياء فيما أتوا به[3]، والمصدّق الصّديق، وهو" مُبَالغَة من الصّدْق في القَوْل وَالْفِعْل، وهُوَ أَعلَى مَرَاتِب الْعباد عِنْد الله بعد الْأَنْبِيَاء، وَمِنْه سمّي أَبُو بكر الصّديق، وَقَوله إِذا جَاءَ الْمُصدّق، وَمَا وجد الْمُصدّق، وَمَا صدر عنّي مُصدّق"[4].

4) ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: يُستعمل (بين) لكلّ ما كان له مسافة، نحو: بين البلدين، أَوْ له عدد ما: اثنان، فصاعدًا، نحو: بين الرَّجُلين، وبين القوم، ويقال: هذا الشّيء بين يديك، أي: مُتَقَدِّمًا لك، ويقال: هو بين يديك، أي: قريب منك، ومنه قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[5]، والمراد "بما بين يديه: هي التَّوراة والإنجيل وسائر كتب الله الّتي تُلُقِّيَتْ من

(1) الجرجانّي، التّعريفات: 142.
(2) الرّاغب، المفردات: (حق).
(3) العزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن: 1/251، والرّاغب، المفردات: (صدق).
(4) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (صدق).
(5) الرّاغب، المفردات: (بين).

قبلنا كالزَّبور والصُّحف، وما بين اليد في هذه الحوادث، هو المتقدِّم في الزَّمن"[1] "يَعْنِي: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ"[2].

5) ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: "التَّوْراة وَالْإِنْجِيل: اسمان أعجميَّان، وتكلُّف اشتقاقهما من الورى والنَّجل، ووزنُهما بـ (تفعلة، وإفعيل)، إنَّما يصحُّ بعد كونهما عربيَّين"[3]، والواقع أنّ "أصلهما عبرانيٌّ، لكن النُّحاة وأهل اللِّسان حملوهما على الاشتقاق العربيِّ"[4]، "ووزنهما بتفعلة وإفعيل تعسُّف؛ لأنَّهما أعجميَّان"[5]، "وَذَلِكَ بَعْدَ تَقْرِيرِ النُّحَاةِ: أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْأَعْجَمِيَّةَ لَا يَدْخُلُهَا اشْتِقَاقٌ، وَأَنَّهَا لَا تُوزَنُ، يَعْنُونَ اشْتِقَاقًا عَرَبِيًّا"[6]، وعليه فإنّ "التَّوْراةَ كلمة عبريّة معناها الشّريعة، وتشتمل على خمسة أسفار هي: (سفر التّكوين، وسفر الخروج، وسفر اللّاويين، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع)، ويقول اليهود: إنّ موسى كتبها، ويسمّيها النّصارى: العهد القديم"[7]، وأمّا الْإِنْجِيل فهو" كلمة يونانيّة، معناها التّعليم الجديد أو البشارة، ويسمّى العهد الجديد، ويشتمل في سيرة المسيح عليه السلام وبعض تعاليمه على أربعة أناجيل هي: إنجيل متّى ويوحنا ومرقس ولوقا، وعلى أعمال الرّسل (الحواريين)، ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب، ورؤيا يوحنا، وهي كلّها مكتوبة بعد قرن أو قرنين من وفاة المسيح، وليس لها سند متّصل إلى كاتبها"[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

"نزَّل عليك أيُّها النّبيُّ ﷺ القرآنَ بالصّدق في الأخبار والعدل في الأحكام، موافقًا لما سبقه من الكتب الإلهيَّة، فلا تعارض بينها، وأنزل التَّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى"[9]، فالقرآن أنزل

لا تعارض بين القرآن والكتب السّماويّة الصّحيحة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/398.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/5.
(3) الزّمخشريُّ، الكشاف: 1/335.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/398.
(5) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/5.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/5، قال الرّازيّ: "فالتّوراة والإنجيل اسمان أعجميان: أحدهما بالعبريّة، والآخر بالسّريانيّة، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب، فظهر أنّ الأولى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث"، ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 7/132.
(7) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/144.
(8) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/144.
(9) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.

بالحقّ، وهو يدعو إلى الحقّ والعدل، فهو الحقّ الملازم للحقّ، وهو مصدّق لما بين يديه؛ من الشّرائع الإلهيّة الّتي سبقته؛ وهذا يدلّ على أنّ الشّرائع الإلهيّة واحدة، في لبّها ومعناها وأصولها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ الإخبارِ بالفعلِ نزَّل:

القرآنُ كتابُ اللهِ المنزَّلُ من اللهِ على رسولِه صدقًا وحقًّا وامتنانًا

قوله: "﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خَبَرٌ عَنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ، وَالْخَبَرُ هُنَا: مُسْتَعْمَلٌ فِي الِامْتِنَانِ على النَّبِيِّ ﷺ وذلك واضح في كاف الخطاب في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ التي فيها مؤانسة للرَّسول ﷺ وعبَّر بالاستعلاء في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾؛ إشارة إلى عُلُوِّ الكتاب، وعلوِّ المُنَزَّل عليه.

ومن أسرار الإخبار بالفعل ﴿نَزَّلَ﴾: دلالته على التَّعْرِيضِ وَالتِّكَايَةِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَجِيءَ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا؛ لِإِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْخَبَرِ، أَوْ لِلدَّلَالَةِ - مَعَ ذَلِكَ - عَلَى الِاخْتِصَاصِ، أَيِ: اللهُ لَا غَيْرُهُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ؛ إِبْطَالًا لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْطَانِ، أَوْ مِنْ طَرَائِقِ الْكِهَانَةِ، أَوْ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ"[2].

الفرقُ بين صيغةِ ﴿نَزَّلَ﴾ وصيغة ﴿وَأَنزَلَ﴾ في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾:

النُّزولُ يكونُ مرَّةً واحدةً، والتَّنزيلُ يكونُ على دَفَعَاتٍ

تعدَّدت أقوال العلماء في هذه المسألة: فمنهم من فرَّق، ومنهم من قال بعدم الفرق، ورأى أنَّ ذلك من باب التَّفنن والاحتراز عن التَّكرار:

الفريق الأول: رأى فريقٌ من العلماءِ أنَّ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ له دلالة تختلف عن ﴿وَأَنزَلَ﴾، وذلك من خلال التَّضعيف في الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ الذي يدلُّ بصيغته على نزول القرآن مُنَجَّمًا، بخلاف الفعل المُتَعَدِّي بالهمز؛ فإنَّه يَدلُّ على النُّزول جملة واحدة، ودليل ذلك أنَّ صيغة

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/147.

فَعَّل تدلُّ على التكثير والتنجيم؛ لذلك استُعملت مع نزول القرآن؛ لأنَّه نزل تدريجيًّا، ولذلك سمِّي الكتاب العزيز: تنزيلاً؛ لأنَّه لم ينزل جملة واحدة، بل سورة سورة، وآية آية، ويدلُّ على هذا المعنى الصِّيغة كما سبق، وشاهد التاريخ، في استمرار نزول القرآن لمدة ثلاثة وعشرين عامًا.

ويؤكِّد ذلك الرَّاغب الأصفهانيُّ بقوله: "والفرق بين الإنزال والتَّنزيل في وصف القرآن والملائكة: أنَّ التنزيل يختصُّ بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مُفرَّقًا، ومرَّة بعد أخرى، والإنزال أعمُّ من أن يكون تدريجيًّا، وذكر شواهد على ذلك.

الفريق الثاني: يرى عدم الفرق بينهما، وأنَّهما بمعنًى واحد، ومن هؤلاء الشيخ زكريا الأنصاريّ، حيث ضعَّف الرأي الأوَّل لعدم اطِّراده، وردَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]. وبقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾؛ إن أُريد به القرآن، وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾"[1].

وذكر أنَّ وجه اختلاف اللَّفظين في النَّص أنَّهما وردا قريبين، فخالف الصِّيغة للاحتراز من التَّكرار، ثمَّ بيّن سبب تقديم المشدَّد ﴿نَزَّلَ﴾ بأنَّه جاء قُبيل قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾، فجعلهما متعاقبين للاتِّفاق الصّوتي بالتَّضعيف الصّرفي، وهذا من بديع التَّوافق الصّوتيِّ: "قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، إن قلتَ: كيف قال هنا: ﴿نَزَّلَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ﴾ مرَّتين؟ قلتُ: للاحتراز عن كثرة التَّكرار، وخُصَّ المشدَّدُ بالأوَّل لمناسبته ﴿مُصَدِّقًا﴾ "[2]، وهذا نصٌّ عظيم بليغ.

والرَّاجح أنَّ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ له دلالة تختلف عن الفعل ﴿وَأَنزَلَ﴾، وبيان ذلك من خلال كلام الآلوسيِّ في هذه المسألة، فقال: عبَّر مع الكتاب، وهو القرآن بـ ﴿نَزَّلَ﴾ ؛ لأنَّ له نُزولين، من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزَّة في السَّماء الدُّنيا، والثَّاني من بيت العزَّة إلى النَّبيِّ ﷺ مُنَجَّمًا في ثلاث وعشرين سنة على المشهور، وأمَّا التوراة والإنجيل؛ فلهما نزول واحد، عبَّر عنه بـ ﴿وَأَنزَلَ﴾[3].

(1) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/77.
(2) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/77.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 3/76.

وما ذكره الآلوسيُّ هو المناسب للسِّياق؛ لأنَّ الآيات التي نزلت في صدر سورة آل عمران نزلت بسبب وفد نصارى نجران، فجاءت الآيات ردًّا على مزاعمهم، وهذا شاهد على نزول القرآن مُنجَّمًا.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

خُصَّ النَّبيُّ بذكر تنزيلِ القُرآنِ عليه تشريفًا له وتخصيصًا

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ ذكرِ من نُزِّلَ عليه القرآنُ وهو محمَّدٌ ﷺ، ولم يذكر على من نزلَت التَّوراةُ والإنجيلُ؟ وذلك "تَخْصِيصًا لَهُ وَتَشْرِيفًا بِالذِّكرِ"[1]، و"لأنَّ القصد هنا ليس إلَّا ذكر الكتابَينِ، لا ذكر من نُزلا عليه"[2]، وللإيماءِ بأنَّه الخاتمُ، وأنَّه إمامُ المرسلين، فذِكرُه سادٌّ عن ذكرِ غيرِه، كما أنَّ القرآنَ مهيمنٌ على بقيَّة الكتبِ التي نزلتْ.

سِرُّ التّعبيرِ بحرفِ الاسْتِعلاءِ دونَ حرفِ الغَايةِ:

المقصودُ بالإنزالِ العلوُّ والشَّرفُ أصالةً، والتَّبليغُ تَبَعًا

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بحرفِ الاستعلاءِ، فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ ولم يقل: (إليك)، وعند تأمل القرآن، نجد أنَّ مادة (الإنزال) تتعدَّى مرَّة بحرف الجرِّ (على) وأخرى بـ (إلى)، وكلُّ حرف منهما له دلالة: فـ (إلى) لانتهاء الغاية، و(على) تفيد الاستعلاء، وعلى هذا؛ إذا تعدَّى الفعل بـ (على)؛ أفاد النُّزول من جهة العُلوِّ دون سائر الجهات، وهذا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم، أمَّا إذا تعدَّى بـ (إلى)؛ فالمراد بنزوله: التبليغ، وعلى ذلك؛ فأمر نزول القرآن له مرحلتان: الأولى: مرحلة التلقِّي، وفيها يأتي حرف (على) للدَّلالة على الشَّرف والرِّفعة، والثَّانية: مرحلة التبليغ، وفيها يأتي التعدِّي بحرف الجرِّ (إلى)؛ لأنَّ الغرض هو تبليغ القرآن إلى الأمَّة، أي: ينتهي أمر البلاغ إليهم، والمقصودُ في هذا السِّياقِ المرحلةُ الأولى أصالةً، والثَّانية تبَعًا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/172، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

بلاغةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والإتيانُ بضميرِ الخطابِ:

آثرَ النَّظمُ تقديمَ الظَّرفِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للاعتناء بالمقدَّم، وهو رسولُ الله ﷺ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر[1]، "وَجَاءَ بِذِكْرِ الْخِطَابِ لِمَا فِي الْخِطَابِ مِنَ الْمُؤَانَسَةِ"[2].

معنى التَّعريفِ في الكتاب:

التَّعريف في لفظ الكتاب يدلُّ على أنَّه الكتاب المطلق الَّذي تحدَّى الله به، ومن شكَّ في ذلك؛ فلينظرْ لما في القرآن من قصص وأحكام وتشريع ومواعظ؛ فإنَّه لن يجد إلَّا الكمال المطلق الَّذي تحدَّى الله به النَّاسَ؛ لأنَّه كتاب أُحكمت آياته.

فائدةُ التَّعبيرِ بالكتابِ دون القرآنِ:

إشـارةٌ إلى أمرٍ غيبيٍّ، في زوالِ الأميَّةِ واكتمالِ القرآنِ

اختار النَّظمُ التّعبيرَ باسم الكتابِ دون القرآنِ؛ والمقصودُ بالْكِتَابِ في قولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الْقُرْآنُ، بِاتِّفَاقِ الْمُفَسِّرِينَ[3]، وذلك لمجموعةٍ من الفوائدِ:

أوَّلًا: ما يحمله هذا الاسم من دعوةٍ لأهلِ الكتاب للإيمان به ﷺ؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّه كتابٌ كما أنَّ لهم كتبًا أُنزلتْ على أنبيائهم، والمصدر واحد، فالإيمانُ ببعضِها والكفرُ ببعضِها الآخر تناقضٌ.

ثانيًا: الإيماءُ إلى أنَّه الكتابُ الجامع لكلِّ أصول الكُتُبِ السَّابقة، فهو الحقيق بهذا الاسم، ويؤكِّد هذا؛ التّصريحُ باسمِ التَّوراة والإنجيل دون الإشارةِ إلى أنَّهما كتابان.

ثالثًا: الإشارة إلى زوال الأميَّة من العرب؛ لأنَّهم سيكتبون هذا الكتاب.

رابعًا: تأنيسٌ للنَّبيِّ ﷺ رغم عنادِ أهلِ الكتاب باكتمال نزولِه؛ لأنَّ الكتابة تعني: الضَّمَّ والجمع، إذن فالقرآن سيُضمُّ، وسيجمع كلَّ أصولِ كتب السَّابقين.

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/171، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/14.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/14.

خامسًا: التَّعبيرُ "باسم الجنسِ إيذانًا بكمال تفوُّقه على بقيَّة الأفراد في حيازة كمالاتِ الجنس؛ كأنَّه هو الحقيقُ بأن يُطلَقَ عليه اسمُ الكتاب دون ما عداه، كما يليِّق به التَّصريحُ باسمي التوراةِ والإنجيل"[1].

هيمنةُ القرآنِ على بقيَّةِ الكتبِ فهو الحقيقُ باسمِ الكتابِ

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

حرفُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ "فيه وجهان:

أحدهما: أن تتعلَّق الباءُ بالفعل قبلها، والباء حينئذٍ للسّببية، أي: نزَّله بسبب الحقِّ.

نـزَّلَ الكتابَ بسببِ الحقِّ، ومُلتبسًا به، ومُضمَّنًا مَعانِيَه

ثانيهما: أن يتعلَّق بمحذوف على أنَّه حال، إمَّا من الفاعل، أي: نزَّله مُحِقًّا، أو من المفعول، أي: نزَّله مُلتبسًا بالحقِّ، نحو: جاء بكر بثيابه، أي: مُلتبسًا بها"[2].

وقال ابنُ عطيَّة زيادةً في توضيح معنى الباءِ، وهو دائرٌ على معنى السَّببيَّةِ والالتباسِ: "قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى ضُمِّن الحقائق من خيره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباء على حدِّها في قوله: جاءني كتاب بخبر كذا وكذا، أي: ذلك الخبر مقتصٌّ فيه، والثَّاني: أن يكون المعنى أنَّه نزَّل الكتاب باستحقاق أن ينزِّل لما فيه من المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أنَّه واجب على الله تعالى أن يفعله، فالباء في هذا المعنى على حدِّها في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: 116] "[3].

سِرُّ اختيارِ وصف الحقِّ دون غيره من الأوصافِ:

اختارتِ الآيةُ مفردةَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّه يطلق على الشَّيء الثَّابت الذي لا يتغيَّر، ويطلق على الله تعالى، وعلى وحيه، وفي هذا دلالة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4، ومحمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/168.
(2) ابن عادل، اللباب: 5/13.
(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/397.

على تكذيب الله لنصارى نجران فيما قالوه في حقِّ عيسى عليه السلام، فهي أقوال باطلة، لا تمتُّ إلى الحقِّ بصِلة، ويطلق أيضًا على الصِّدق، فهو صادق في كلِّ الأخبار، ومنها ما أخبر به في حقِّ عيسى عليه السلام.

الحقُّ لفظٌ عامٌّ يشملُ أفرادًا كثيرةً ويردُّ أباطيلَ لا تُحَدُّ كَثْرَةً

وجيءَ بلفظِ الحقِّ لما تضمَّنه من المعاني العظيمةِ، مُلخَّصها في الآتي:

أحدها: أَنَّهُ صَدَقَ فِيمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

ثَانِيهَا: أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ يَحْمِلُ الْمُكَلَّفَ عَلَى مُلَازَمَةِ الطَّرِيقِ الْحَقِّ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، وَيَمْنَعُهُ عَنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْبَاطِلِ.

ثَالِثُهَا: أَنَّهُ حَقٌّ بِمَعْنَى: أَنَّهُ قَوْلٌ فَصْلٌ، وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ.

رَابِعُهَا: قَالَ الْأَصَمُّ: الْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَهُ بِالْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لَهُ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَشُكْرِ النِّعْمَةِ، وَإِظْهَارِ الْخُضُوعِ، وَمَا يَجِبُ لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ فِي الْمُعَامَلَاتِ.

خَامِسُهَا: أَنْزَلَهُ بِالْحَقِّ لَا بِالْمَعَانِي الْفَاسِدَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف: 1][1].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ دون صادق:

قوَّةُ القرآنِ وهيمنتُه على بقيَّةِ الكتبِ في صدقِه وتصديقِه لها

اختار النَّظمُ التَّعبير بصيغةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ دون (صادِق)؛ لمجموعةٍ من الفوائد:

أوَّلًا: الإشارة إلى أنَّه صادق في ذاته مُصدِّقٌ لغيره، بخلاف صادق؛ فهو يدلُّ على الصِّدقِ في ذاته فقط.

ثانيًا: الإيماءُ إلى صحَّة القرآن الكريم، وأنَّه كلام الله تعالى لاتِّفاقه في الأصول التي دعت إليها الكتب السَّابقة، وفي هذا إشارة إلى الاعتراف بها؛ لأنَّه لو كان من عند غير الله، لم يكن موافقًا لها، ولا مُتَّفقًا معها.

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.

ثالثًا: الإشارة إلى تأكيد وجوب إيمانهم به ﷺ وما أُنزل عليه؛ لأنَّ إيمانهم بما معهم يقتضي الإيمان بما يصدِّقه.

القرآنُ صدَّق أصولَ الكتبِ السَّابقةِ، ونسخَ مُعظمَ فروعِها

ومعنى تصديق القرآن للكتبِ السَّابقةِ، أنَّه صدَّقَ أصولها؛ لما فيها من الشَّرائع والأحكام؛ لأنَّه مصدِّقٌ لاستحقاق تلك الأحكام وجريانها وقت نزولها، ثمَّ نسخها؛ "فَالْقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِتِلْكَ الْكُتُبِ فِي كُلِّ ذَلِكَ، وَالْقُرْآنُ، وَإِنْ كَانَ نَاسِخًا لِشَرَائِعِ أَكْثَرِ الْكُتُبِ؛ فَهِيَ مُبَشِّرَةٌ بِالْقُرْآنِ وَبِالرَّسُولِ، وَدَالَّةٌ عَلَى أَنَّ أَحْكَامَهَا تَثْبُتُ إِلَى حِينِ بِعْثَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولَهُ - ﷺ -، وَأَنَّهَا تَصِيرُ مَنْسُوخَةً عِنْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، فَقَدْ وَافَقَتِ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مُصَدِّقًا لَهَا؛ لِأَنَّ الدَّلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَى ثُبُوتِ الْإِلَهِيَّةِ لَا تَخْتَلِفُ"[1].

اللَّامُ في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لتقويةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ في العملِ:

جاء لفظُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ متعدّيًا باللّام، دون أن يتعدَّى بنفسه؛ لتقويةِ التَّعدية[2]، أي: لتقوية العامل وهو ﴿مُصَدِّقًا﴾؛ لكونه اسم فاعل، وهو فرعٌ في العمل[3]، إذِ "اللامُ دِعامةٌ لتقويةِ العملِ، نحوُ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: 107]"[4]، فقول الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أقوى من: (مصدقًا ما بين يديه)، ففيها معنى التَّوكيدِ والثَّباتِ وقصدِ التَّصديقِ.

بلاغة التَّعبير عنِ الماضي بقولِه تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

تصويرُ حُضُورِ المُصدَّقِ بين يَدَيِ المُصدِّقِ لَه

لسائلٍ أن يسألَ: "كَيْفَ سَمَّى مَا مَضَى بِأَنَّهُ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ تِلْكَ الْأَخْبَارَ لِغَايَةِ ظُهُورِهَا سَمَّاهَا بِهَذَا الِاسْمِ"[5]؛ فهي ظاهرةٌ واضحةٌ لا لُبسَ فيها كأنَّها بين يديه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/15.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/15.
(3) زاده، حاشية على البيضاوي: 3/5.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/4، والقنّوجي، فتح البيان: 2/171.
(5) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/131.

وهذا التَّعبيرُ مجازٌ؛ "لأنّ ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ هو ما أمامه، فسمَّى ما مضى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لغايةِ ظهورِه واشتهارِه"[1]، "وَجُعِلَ السَّابِقُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَجِيءُ قَبْلَهُ، فَكَأَنَّهُ يَمْشِي أَمَامَهُ"[2]، وتظهر بلاغةُ هذا التَّعبير عن هذا المعنى في تصوير حضورِ المُصدَّقِ بين يَدَيِ المُصدِّقِ لَه.

القُرآنُ متقدِّمٌ في المكانةِ مهيمنٌ على السَّابق فأصبح بهذا الاعتبارِ متقدِّمًا

التَّعبيرُ بقولِه: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحملُ بَيْنَ يديه دلالاتٍ تاريخيَّةً وزمانيَّةً، ولسائلٍ أن يسألَ: إذا نظرنا إلى الكتب السَّماويَّة حسب واقعها التاريخيِّ؛ نجد أنَّ القرآن الكريم هو الذي بين يدي الكتب السَّماويَّة، وليست هي التي بين يديه؛ لأنَّه جاء إلى الوجود تاليًا لا سابقًا عليها، فكيف تكونُ هي بين يديه؟!

ويجيب الشَّيخ عبد الكريم الخطيب على هذا السُّؤال الذي أورده بقوله: الكتب السَّماويَّة ليست أحداثًا حادثة، وإنَّما هي وقائع في علم الله تعالى موجودة من الأزل، شأنها شأن جميع ما في علم الله، وظهورها وانكشافها لنا يجيء موقوتًا بإرادة الله مقدورًا بحكمته، ففي سير الأحداث من سجلِّ الغيب، وظهورها على مسرح حياتنا، نجد أنَّ الكتب السَّماويَّة جميعها تقدَّمت القرآن الكريم واحدًا واحدًا، والسَّابق منها بين يدي اللَّاحق، وبهذا التقدير تقع جميعها بين يدي القرآن، وليس الأمر كذلك في حركة التَّاريخ، حيث تُطوى الأحداث التي تَجِدُّ، فكلُّ حدثٍ جديد في هذه الحركة يمشي على آثار الحدث الذي مضى، ويخلفه وراءه، وحركة الزَّمن ليست على تلك الصُّورة، إنَّها حركة واحدة.

وعندما ننظر إلى القرآن الكريم في هذا الوضع نجده قد أخذ مكانه من الكتب السَّماويَّة كمصدر إشعاع لها، ومركز انطلاق لكلمات الله منها، وكأنَّها - أي: الكتب السابقة - تمهِّد له الطريق، وتهيِّئ له الأفق الذي يستقبله حين يطلُع على النَّاس، ويملأ الوجود بنوره القدسيِّ[3].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/148.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1/395.

توجيه المخصُوصِ بالذِّكرِ:

تشريفُ التَّوراةِ والإنـجـيـلِ بالذِّكرِ، غايتُه تشريفُ الكتابِ المصدِّق لهما

قولُه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يشملُ جميعَ الكُتُبِ المتقدِّمة؛ لكنَّه خَصَّ التوراة والإنجيل بالذِّكر مع دُخولِهما فيما سبقَ؛ تشريفًا لهما[1]، وتعيينًا لما بين يديه، وتبيينًا "لرفعة محلِّه؛ تأكيدًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده؛ إذ بذلك يترقَّى شأنُ ما يصدِّقه رفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قبولًا ومهابةً، ويتفاحش حالُ من كفرَ بهما في الشَّناعة واستتباعِ ما سيذكر من العذاب الشَّديد والانتقام"[2].

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/408.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»